الدكتور حسن جعفر نورالدين

رحلة مع نعيمة وجبران الى جبال الأرز

إفترقا ثم اجتمعا في وطن عشقاه، آه كم ليلك نهار وروابيك الأسرار، ذاك جبران هناك آلهة الأرض يداه، والمجنون صداه، والموسيقى نايه، والأرز علاه، يستهدي مضمعه حيث لأول مرة شقّت عيناه نسيم الفجر، مذ ذاك تعلّم موسيقاه، جبران هناك تحمم بثلجه، بالماء الساطع من شمس خجلى، من دروب الكهّان، وكنائس إيمان علوية، يحضره وجهك يا بشري ملتفاً بالتاريخ، بحداء الرهبان الملكية، وأحاديث الطير العاشق في غابات الأرز الصامدة، يتطلع من قمم القرنة السوداء، فيشاهد لبنان صحيفة ألوان، دراً قائمة في الغيم وفي الغابات.

هما وصلا الشرق بالغرب صلة حضارة ورقي وفكر، آنذاك فتيان من الفريكة وبشري وبسكنتا وحمص نقلوا الثقافة العربية الى الغرب، ثم نقلوا الثقافة الغربية الى العرب، ثم نقلوا الغرب الى الشرق، وبالأخص جبران و نعيمة ، رائدان من رواد العلم والحضارة في العالم الجديد، بناة حضارة وفكر للإنسانية جمعاء ، استطاعا فرض أنفسهما احتراماً وتقديراً لما أسدوه للحضارة الانساتية لإنتاج فكر تنحني له العقول.

هوذا جبران أمامي كما لو كان من الأحياء

من ذروات بشري كفّ الروح مدّ

ويوقظ في نعيمة أياماً في البال

من قاديشا يشرب خمرته يتناول

شلحاً من شجر الأرز ويرسم

حورية قاديشا، أودعها

حفر الثلج وجثماناً من شلح

الأرز الفتان

جبران من بشري تسمعه

تلمسه وتراه، تكتشف العبق الغربي

يتجلى في ناره وهوائه وبموسيقاه

يأخذ ما بين ذراعيه بشري

يسأل عن محبوبته الأولى ، يرسمها، يكتبها

بالحبر حيناً وبالثلج أحياناً أخرى

شفتاه تمتصا من خمرة مي

وسلمى كرامة وماري هامكل

أكثر ما من عنب بشري

وغابات الصنوبر في أرز الرب

جبران... من قاديشا يشرب

ماء الإبداع

آه كم ليلك أنت نهار

وروابيك الأسرار

والقمم الأدعية المرفوعة

نحو الله...

فالأرز علاك

جبران الغافي منذ سنين

بين الثلج وبين الماء

قلمه خشب الأرز ودفتره

هذي ريشة من عود القمم الشمّاءْ

وكذلك دفتره من شلح العرعارْ

من نسغ لحاء الأشجار

جبران هناك يستحم بثلجه

بالماء الساطع من شمس خجلى

ودروب الكهّان كنائس إيمان

وأحاديث الطير العاشق

في غابات الأرز الملكية

أتطلع من ذروة القرنة السوداء

فأشاهد لبنان وسوريا وشرق الاردن

تلك هي قبة الصخرة على مرمى حجر أيها الأعراب

فلسطين العربية ، صحف ألوان ، لوحاتٌ فنية صنع الله، ومحابر من شتى الألوان، فساتين دهشة وغمام ككرات بيضاء فنية صنع الله...

جدلية:

من قاديشا يشرب جبران مياه الإبداع

يوقظ في نعيمة أياماً في البال

جبران أمامي بملابسه ومتاحفه وأصابعه

الخالقة: ألواناً ورسوماً جدلية

يتذكر صاحبه وأخاه في الهجرة والإبداع

يوقظ في نعيمة أياماً في البال

يمدّ الى بسكنتا كفّ الروح

تلك هي بسكنتا دمع الشخروب

قطعة الماس خضراء وصفراء وغمامية

صحبني نعيمة يوماً لزيارة بسكنتا

صعدناها من بيروت، كنت فتى في عمر الأزهار

شاهدت الشخروب قبل أن نصعد بعيني نعيمة

وهناك من تلك الأروة تشاهد لبنان

حيث قمر الروعة والسحر الفتان، وأين أين كان ذات يوم

يقرأ ويكتب ذكريات في البال، وقد سعدت بزيارته سنة 1966 في لقاء أدبي جميل.

بسكنتا وصنين، الأرز وبشري، يتحدان لخدمة البشرية في أنصع عطاء وصل العالم، إذ ترجمت كتبهم الى معظم لغات العالم، والتحم الشرق والغرب(عبقريان من بلادي، بل نابغتان: جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة)، أديا خدمة عظيمة للأدب بلغاته المختلفة ، ولا نبالغ إذا قلنا أن حضارتنا كانت محط أنظار العالم أجمع.

وإذا ما أردنا أن نعرف هذين العظيمين ونقف أمامهما احتراماً فما لنا إلا التوجه الى (مار سركيس) قرب غابة الأرز حيث يرقد جبران، الذي أعلى مكان بلاده وذهّب حروف مجدها بقلمه، ثم الى الشخروب في أعالي بسكنتا حيث البيت الصغير المتواضع الذي كان مقراً ومنزلاً لنعيمة، حيث استلهم منه معظم ما كتبه في عالم الأدب والفن والإبداع.

كاتبان كبيران التقيا في مقتبل عمرهما في بوسطن إحدى مدن الولايات المتحدة الأميركية فتكاتفا واتحدا وخصصا معظم أوقاتهما للكتابة في الصحف الأميريكية التي كانت تصدر باللغة العربية آنذاك.

جبران سكنة روح، موسيقي ورسام وأديب وشاعر وعاشق وقاصٍ وملحن، وكان غريباً في كل شيء، في أسلوب حياته وطريقة عيشه وروعة فنه وجدة شعره وأدبه ونمط حبه وعشقه، ولو لم يكن آنذاك في المهجر لما استطاع أن يقدم لوطنه هذا الإبداع كله، ربما، وهو الذي أراد من الفن أن يجعله خادماً وكان له ما أراد، استماله الفن حتى العبودية، كان حبه للفن أقوى من حبه للمرأة، لذلك تفوّق في الفن، و لم يحقق أحلامه في الحب الذي ظل في المناجاة والتمنيات، وربما لم يكن عشقه للفن الذي أخذ عليه كل وقته هو الذي لم يُتح التفكير في الزواج، وبقي الحب حتى مات رهين الرسائل والمناجاة، ومن يجدي لعل الزمن لو منحه حياة أطول لمال الى معادلة الفن بالحب، لكن القدر كان أسرع وربما ربح الأدب والفن في معركته مع الحب الذي ظل رهين الرسائل والعواطف المتبادلة ، جبران الآن وغداً على كل شفة ولسان ، في الأحداق يعيش، في الأدب العالي مغتربه ومقيمه، في الشعر الصافي في حدقات المجد، قد نتماهى ونبالغ بعض الأحيان ، لكن سيرته تحظى بالمتعة وأسبق حضوراً في تاريخ الأدب مقيمه ومغتربه، في قاديشا وبشري لا يغرب معناه، في حدقات الأرز العالي تنساب جداول الرسام و الملحن والمصور، وسيبقى ضريحه ومتحفه صورة لوجوده ومتعة لزواره، وكأنه ما زال يعيش في الذاكرة والوجدان . الى اليوم مثالاً منقطع النظير للشعراء العرب المحدثين، هؤلاء الشعراء الذين يدعون جبراناً أباهم ومعلمهم، لقد تلقى من أحد أكبر هؤلاء الشعراء كتاباً سطرت عليه عبارة الإهداء وجاء فيها: الى منقذ الشعر الخالد، الى الشعلة الروحية التي أيقظت فكر الشرق ، الى جبران خليل جبران، معلمنا، أتشرف بأن أهدي هذا الكتاب الذي ليس غير مهدى لصدى صوته.

وإثر إهدائه كتاباً في محترف الرسام داود العرم تمثل لوحات عائدة الى عصر النهضة، وشغف بفن الرسم، وقام برحلتين الى باريس حيث أثار إعجاب "رودان" الذي وجد في جبران مزايا فريدة عجيبة في هذا الميدان، وعندما رجع الى بوسطن عاش حياة حافلة كمفكر ورسام

وشاعر، وكان مثقفاً ثقافة عالية وشخصية ، وقد عرض أول لوحاته باللغة الانكليزية. وكان جبران ثائراً على الظلم والإستبداد صديقاً حميماً للمرأة، ففي وصفه لجسد المرأة بالذات وصفاً مادياً خالص المظهر نجد لهب الروح وحرارة الشوق.

يقول عنه الناقد الأميركي(كلود برامظتون) إن قدرته كانت تأتي من خزان روحي كبير، ولولا درع لم يكن عالمياً وعظيماً الى هذه الدرجة ، ولكن جلال وجمال اللغة التي رش بها هذه القدرة، كانا بكاملهما واحدة .

الأمس هو ذكرى اليوم فقط، والغد حلم اليوم. أما المرأة في حياة جبران فهي المرأة في حياة كل فنان، لا اختلاف في النظر اليها مع الإختلاف في النظر دون الجوهر والى الشكل دون المضمون.

وكان جبران في الحادية عشرة من عمره عموماً عندما أخذته والدته الصبية من بشري مسقط رأسه الى الولايات المتحدة الاميركية مع أولادها الثلاث الآخرين، من أجل أن تعيش وإياهم فيها لتربيهم من عملها كخياطة. ثم عاد الى لبنان في الخامسة عشرة حتى يتعلم العربية في معهد في بيروت... وقد لمع هناك في دروسه كثيراً، حتى أن مؤلفات شبابه الاولى المكتوبة بهذه اللغة أحدثت هزة في جمعي أنحاء الشرق الأدنى، الذي قال أحد مؤرخيه: خلق هذا اللبناني أسلوباً أدبياً جديداً، وأوجد مدرسة في التعبير لم تكن معروفة في الآداب العربية.

جدول بأسماء كتب جبران العربية مع تاريخ صدورها

اسم الكتاب	تاريخ الإصدار
الموسيقى	1905
عرائس المروج	1906
الأرواح المتمردة	1908
الأجنحة المتكسرة	1910

دمعة وابتسامة	1914
المراكب	1919
العواصف	1920
البدائع والطرائف	1923

جدول بأسماء كتب جبران الإنكليزية مع تاريخ صدورها

اسم الكتاب	تاريخ الإصدار
المجنون	1918
السايق	1920
النبي	1923
رمل وزبد	1926
يسوع بن الانسان	1928
آلهة الأرض	1931
التائه	1930
حديقة النبي	؟

جبران خليل جبران

إذن عظيمان من وطني جمعتهما الكلمة الجميلة، والعقيدة الراسخة، والموهبة التي عادت بالخير على الأدب والشعر في الوطن وخارجه.

عبقريان أكدا وجودهما الفاعل وعبقريتهما الفذّة ، كانا رائدين من رواد العلم الحديث في العالم الجديد، تبوءا مركزاً متقدماً في قلوب اللبنانيين ، إذ استطاعا أن ينشرا أدبهما في كل مكان في العالم ، وباللغتين العربية والانكليزية ، على أنهما كانا محط أنظار أبناء وطنهما . وعلى صعيد العالم ، حازا على إعجاب الغرب ، إذ عاشا فيه سنوات طوالاً، وأديا خدمات كبرى للأدب والفن ، وحازا على إعجاب ومحبة العلماء و العظماء، وكان لهما صيت واسع ومكانة مرموقة في كل مكان. وقد اشتهر جبران علاوة على أدبه الرفيع بفن التصوير والرسم، فهاجر الى باريس ليتخصص في هذا الفن، وأصبح إثر ذلك رساماً مبدعاً، وذاع صيته في العالمين، وكان اسمه على كل شفة ولسان، بعد أن نشرت رسومه في أميركا ، وقد نال إعجاب الرسامين العالميين في بلدان الشرق والغرب، وكانت بوسطن مسرحاً لأحلام نعيمة وجبران، إنطلقت منها مواهبهما.

السائح منطلق خطواتهما، وعكاظ قوافيهما ومنبر أفكارهما، إذ نشرا فيها مقالات كثيرة في الأدب والاجتماع والفلسفة ، وقد جمعت تلك المقالات في كتب اللغة العربية ، ولاقت نجاحاً باهراً وصيتاً واسعاً، كما أنهما أصدرا كتباً كثيرة غيرها في اللغة الانكليزية والتي برعا كلاهما وتعمقا في أصولها وقوانينها اللغوية واتقانها بالعامية والفصحى إتقاناً تاماً زاحما فيه أبناء وكتّاب وأدباء اللغة نفسها. ومن أهم هذه الكتب "النبي" لجبران و"مرداد" لنعيمة ، وعشرات الكتب لكليهما والتي لا يخفى على الناس أسماءها، إذ انتشرت في كل مكان وأصبحت تراثاً أدبياً فذاً يعبّر عن ثقافة و إبداع كليهما وعن الغايات والأهداف التي ترمز اليها ، فمرداد مثلاً يمثل الحقيقة العظيمة التي هي فوق الدنيوات الصغيرة الحقيرة، والنبي لجبران وهو خلاصة ما استوحاه من الحياة المريرة التي عاناها في ماضيه وشبابه وكهولته، فأعطى من خلاله حكماً

وعبراً وصوراً مختلفة عن سوءات الناس وأخطائهم ، وقد خطب فيهم في مدينة (أورفليس) موجهاً اجاباته الى المطرة التي كانت تطرح عليه أسئلة عن كل عمل يقوم به الانسان في دنياه ، وكانت هذه الإجابات آيات أرضية مقدّسة يجب أن يتبعها كل انسان.

أما ميخائيل نعيمة ، فإنه ولد سنة 1899 في بسكنتا وهي بلدة في أعالي المتن الشمالي ، تعلو عن سطح البحر حوالي ألف وأربعماية متر.

تلقى تحصيله الدراسي الابتدائي في مدرسة الضيعة وأنهى دراسته في المدرسة المسكوبية بتفوق وحصل سنة 1904 من الجمعية الروسية على منحة لمواصلة دراسته في دار المعلمين الروسية في الناصرة ، ثم حصل على منحة ثانية من الجمعية نفسها في الناصرة لمتابعة دراسته في السنمار الروحي في مدينة بولتافا في جنوب روسيا 1902 . نظم بواكير قصائده في اللغة الروسية وبينها قصيدته المشهورة(النهر المتجمد) سنة 1910 .

أنهى دراسته في بولتافا وعاد الى لبنان ثم انتقل الى الولايات المتحدة الاميركية ليلتحق بشقيقه في مدينة(موالاوالا) في ولاية واشنطن.

افتتح حياته الأدبية بمقال في النقد الأدبي عنوانه(فجر الأمل بعد ليل اليأس)، نشر هذا المقال في العدد الرابع من مجلة الفنون النيويوركية التي أنشأها الشاعر نسيب عريضة ، ثم تخرج سنة 1916 من جامعة واشنطن بإجازتين في المسرحية(أبناء و بنون) وهي مسرحية من أربعة فصول نشرت تباعاً في مجلة الفنون .

انتقل الى نيويورك بإلحاح من نسيب عريضة، وتعرّف هناك الى عدد من الكتّاب الشباب الذين كانوا يكتبون للفنون، ومنهم الى جانب نسيب عريضة، عبد المسيح حداد وجبران خليل جبران ورشيد أيوب و ايليا أبو ماضي سنة 1917 ونشر في الفنون رواية مذكرات الأرقش. وقد تسلم

تحرير الفنون سنة 1918، ثم استدعي الى الخدمة العسكرية في الجيش الاميركي سنة 1919 ، وكان من بين الذين اختارتهم القيادة للدراسة في جامعات فرنسا، فدخل جامعة (رين) لدراسة الآداب الفرنسية و التاريخ الفرنسي.

عاد في أواخر العام 1920 الى نيويورك واستأنف نشاطاته الأدبية وألّف في العام نفسه مع زملائه من أسرة الفنون (الرابطة العلمية) التي وضع دستورها ، وعمل مستشاراً لها، كما حدد في مقال إفتتاحي الإنتقال في الأدب العربي من طور التخلف و الجمود الى طور الجدّة والأصالة و المعاصرة، بغية ترسيخ الأدب العربي في العالم الجديد.

سنة 1932 ترك مهجره الأميركي نهائياً وعاد الى مسقط رأسه لينصرف كلياً الى ما يشبه التعبّد الى الحياة العلمية، وأصدر سنة 1934 كتاب جيران خليل جبران حياته وموته، أدبه وفنه، وهو سيرة جبران كما عرفه نعيمة خلال ست عشرة سنة من الصداقة والزمالة القلمية في نيويورك.

سنة 1936 صدر له كتاب "زاد المعاد" وهو مجموعة من الخطب والمحاضرات التي ألقاها بعد عودته من المهجر في مناسبات تكريمية له أو بناء لدعوات من بعض الأندية والمؤسسات الثقافية والجامعات في لبنان وسوريا وفلسطين.

سنة 1937 صدر في بيروت كتاب "كان ما كان " وهو مجموعة من القصص التي كان كتبها في المهجر 1914– 1920 ، ذهب سنة 1944 في جولة محاضرات شملت الاردن وفلسطين، وصدر له سنة 1945 ديوان " همس الجفون " وهو مجموعة قصائده العربية و الانكليزية المترجمة الى العربية، وكان نظمها متفرقة في الصحف في العالم العربي. كما صدر له في القاهرة كتاب " البيادر" وهو مجموعة محاضرات ومقالات متفرقة منذ سنة 1940 .

صدر له سنة 1946 في بيروت "الأوثان" وفي القاهرة كتاب "كرم على درب" وهو شذرات وحكم وأوابد، ثم كتاب "لقاء " وقد صدر في بيروت سنة 1948 وهو رواية أسطورية وفيها عقيدة التقمص، ثم في القاهرة صدر له كتاب " صوت العالم " وكتاب " مرداد" بالانكليزية، وكتاب "مذكرات الأرقش" سنة 1949 وهو رواية كانت قد كتب القسم الأكبر منها في نيويورك سنة 1947 ونشرها في مجلة الفنون . وصدر له في بيروت سنة 1950 كتاب " النور والديجور"، وصدرت سنة 1952 الترجمة الانكليزية لكتاب " مذكرات الأرقش" ، و سنة 1953 كتاب " في مهب الريح" ، وسنة 1954 كتاب " دروب " وقد صدر في بيروت ، و قام سنة 1956 بزيارة الاتحاد السوفياتي بدعوة من اتحاد الكتاب الروس.

وصدرت له في مدريد " همس الجنون" (ترجمه ليونور مارتينز) ، وكتاب " النبي " لجبران ترجمه ميخائيل نعيمة ، وصدر له في الخمسينات كتاب " أكابر" و كتاب " أبعد من موسكو وواشنطن" وفي بومباي الطبعة الانكليزية لرواية " لقاء" ، وفي بيروت كتاب " أبو بطة" وسنة 1909 الجزء الأول من كتاب " سبعون" ومجموعة قصص بالروسية ترجمها الاستاذ اسكندر قزما، و بالأرمنية رواية " لقاء" نقلها عن العربية سركيس أشجبيان، وسنة 1960 الجزء الثاني والثالث من كتاب " سبعون" ، وصدرت في هولندا الطبعة الثالثة لكتاب " مرداد".

مُنح نعيمة جائزة رئيس الجمهورية سنة 1961 ، ثم ذهب الى تونس بدعوة من حكومتها، ثم الى العراق بدعوة من حكومته أيضاً . وصدرت له سنة 1964 أول طبعة لبنانية بالانكليزية لكتاب "جبران" .

ذهب الى الهند بدعوة لحضور مؤتمر عالمي في مدينة(سملا) حول الدين والمجتمع. هذا عدا عن كتب كثيرة لنعيمة طبعت أو ترجمت الى اللغة العربية.

أقام له الرئيس سركيس سنة 1978 مهرجاناً تكريمياً شاركت فيه الدولة.

من مؤلفاته أيضاً:

- "الغربال" وقد صدر في القاهرة سنة 1913 وهو مجموعة مقالات مختارة من مقالاته الأدبية التي ظهرت بين 1913 و1022 .
- ظهرت أول قصائده باللغة الانكليزية بعنوان " الجوع " في جريدة التايمز النيويوركية سنة 1928.

سنة 1931 توفي صديقه جبران في مستشفى القدّيس فنسنت في نيويورك، وكان هو الوحيد بين رفاق جبران في الرابطة فقيّض له أن يكون الى جانب صديقه في ساعاته الأخيرة ويشهد صراعه المضني مع الموت طوال ست ساعات.